

كمال الدين بن يونس

لساتذ قدرى حافظ طرفان

— — — — —



لم يكن عند
كمال الدين خبر من
أحوال الدنيا ،
يلبس بلا تكاف ،
لا يعنى بزى أو
هندام منصرفاً
بكله إلى العلم بين
درسه وتدرسه .
تفقه بالموصل على
والده وكان ذلك
في النصف الثاني

من القرن الثاني عشر للميلاد . وفي سنة ٥٧١ هـ ذهب إلى بغداد وأقام بالدرسة النظامية يدرس على السلماني والقزويني والشيرازي فقرأ الخلاف والأصول ، وبحث في الأدب على الأنباري ، ثم عاد إلى الموصل حيث عكف على الاشتغال بالعلوم الدينية والعقلية والأخيرة كانت غالبية عليه « ... فكانت تمر به غفلة في بعض الأحيان لاستيلاء الفكرة عليه بسبب هذه العلوم ... » ، وأخذ من أحد المساجد (في الموصل) مكاناً يدرس فيه عُرف فيما بعد بالدرسة الكالية . وبقى كذلك إلى أن توفاه الله في منتصف القرن الثالث عشر للميلاد ...

ذاع صيته وانتشر فضله « ... فانتال عليه الفقهاء وتبحر في جميع الفنون وجمع من العلوم ما لم يجمعه أحد ... »
رجع إليه الملوك والأمراء والعلماء في المسائل العلمية ، واستعان به ملوك الإفرنج في ما أشكل عليهم من مسائل تتعلق بالنجوم . فقد ورد إلى الملك الرحيم صاحب الموصل رسول من الأبراطور فردريك الثاني ويده مسائل في علم النجوم ، وقد

قصد أن يرد كمال الدين أجوبتها . فأرسل صاحب الموصل يعرفه بذلك ويقول له « ... أن يتجمل في لبسه وزيه ويجمل له مجلساً بأبهة لأجل الرسول ، وذلك لما يعرفه عن ابن يونس أنه كان يلبس ثياباً رثة بلا تكاف وما عنده خبر من أحوال الدنيا ... »
فاستمد كمال الدين ، وعندما اقترب الرسول من داره بث من الفقهاء من يستقبله ، فلما حضر عند الشيخ (كمال الدين) — يقول أحد الحاضرين وهو من بغداد : نظرنا فوجدنا الموضوع فيه بسط من أحسن ما يكون من البسط الرومية الفاخرة « ... وجماعة مماليك وقوف بين يديه وخدام وشارة حسنة ، ودخل الرسول وتلقاه للشيخ ، وكتب له الأجوبة عن تلك المسائل بأسرها ، ولما راح الرسول غاب عنا (يقول البغدادي) جميع ما كنا نراه ؛ فقلت للشيخ : يا مولانا ، ما أعجب ما رأينا من ساعة من تلك الأبهة والحشمة ، فتبسم ، وقال يا بغدادى هو علم ... »
كان كمال الدين متواضعاً ذا روح علمي صحيح سما العلم بنفسه وصقل روحه ، فإذا الإخلاص للحق والحقيقة يسيطر على جميع أعماله فلم يترك مناسبة دون تبيان الحقيقة وإعلاء شأن الحق وكان يسير على لقول السائر : « العلم يزكو بالإنفاق » فكان يجيب على ما يأتيه من مسائل من بغداد وغيرها من حواضر الإمارات ويوضح المشكلات التي ترد عليه من سائر الأقطار في مختلف فروع المعرفة ، وجاء أن أحد علماء دمشق أشكل عليه مواضع في مسائل الحساب والجبر والمساحة وأقليدس ، فكتب إلى كمال الدين يستفسره عنها فأجابه عليها وقد كشف عن خفيها وأوضح غامضها ، وذكر ما يعجز الإنسان عن وصفه . ثم كتب في آخر الجواب : « فليمهد المذر في التقصير في الأجوبة فإن القرية جامدة والنقطة خادمة قد استولى عليها كثرة النسيان وشغلها حوادث الزمان ... »

لقد اعترف له الأقدمون من العلماء والباحثين بالفضل والتبوغ فقال ابن خلكان : « ... وكان يدري في الحكمة والمنطق والطبي والإلهي وكذلك الطب ، ويعرف فنون الرياضة - من أقليدس والمهية والخروطات والمتوسطات والمسطى وأنواع الحساب الفتوح منه والجبر والمقابلة وطريق الخطأين والموسيقى والمساحة - معرفة لا يشاركه فيها غيره إلا في ظواهر هذه العلوم دون دقائقها والوقوف على حقائقها ، واستخرج في علم الأوقات طرقاً لم يهتد إليها أحد ... » وفوق ذلك كان عالماً بالعربية

وعمل في ذلك مقالة . وعلى ذكر الأبهري نقول إن له مؤلفات قيمة في علم الهيئة والاسطرلاب ورسائل نفيسة في الحكمة والمنطق والطبيعات والإيساغوجي

ويقول سارطون : « ... إن كمال الدين من أعلم علماء زمانه ومن كبار المعلمين - أو هو المعلم العظيم - ومن أصحاب النتاج الضخم ، وهو مجموعة معارف شتى في العلوم والفنون ... » ويمكن القول إنه كان لبحوث كمال الدين قيمة كبرى عند علماء عصره وأثر في تقدم العلوم

لقد سبق كمال الدين غاليليو في معرفة بعض القوانين التي تتعلق بالرقاص ، فقال سمث : « ومع أن قانون الرقاص هو من وضع غاليليو إلا أن كمال الدين بن يونس لاحظه وسبقه في معرفة شيء عنه . وكان الفلكيون يستعملونه لحساب الفترات الزمنية أبناء الرصد ... » ومن هنا يتبين أن العرب عرفوا شيئاً عن القوانين التي تسيطر على الرقاص ثم جاء من بعدهم غاليليو ، وبمسد تجارب عديدة استطاع أن يستنبط قوانينه إذ وجد أن مدة الذبذبة تتوقف على طول البندول وقيمة عملة التثاقل ووضع ذلك بشكل رياضي بديع وسع دائرة استعماله وجنى الفوائد الجليلة منه ونظم كمال الدين الشعر ، وله قطع غزلية رقيقة نغيفض عذوية وسلاسة . منها :

ما كنت ممن يطبع عذالي ولا جرى هجره على بالي
حلت كما حلت غادراً وكما أرخصت أرخصت قدرك العالي
وله أيضاً :

حتى ومتى وعدكم لي زور مطسل واف ونائل متزور
في قلبي حب حبكم مبذور زوروا فمسي يشعرو صلاً زوروا
ومن المؤسف أنه لم يصلنا من نتاج كمال الدين إلا القليل فقد ضاع أكثره أثناء الانقلابات ، والفن التي حدثت في العراق .

وورد في المصادر بعض مؤلفاته التي تتعلق بالفقه والمنطق والتجويد وهي : كتاب كشف المشكلات وإيضاح المضلات في تفسير القرآن ، شرح كتاب التنبيه في الفقه (بجلدان) ، كتاب مفردات ألفاظ القانون ، كتاب في الأصول ، كتاب عيون المنطق ، كتاب لنز في الحكمة ، وكتاب الأسرار السلطانية في النجوم وخلف كمال الدين أولاداً أتقنوا الفقه ، وسائر العلوم « ... وهم من سادات المدرسين وأفاضل المصنفين ... » كما يقول ابن أبي أصيبعة . (نابلس) قسري حافظ طوقامه

والتصريف ، قرأ سيبويه والإيضاح والتكلمة لأبي علي الفارسي والفصل للزخشرى « وكان له في التفسير والحديث وما يتعلق به وأسماء الرجال يد جيدة ... » ولم يقف علمه عند هذا الحد بل عنى بتاريخ العرب وأيامهم فقد كان يحفظ الشيء الكثير من أشعارهم ووقائعهم ، ودرس التوراة والإنجيل ، ووقف على كثير من دقائقهما ، وقد قرأها عليه بمض أهل النمة واعترفوا بأنهم لا يجدون من يوضحهما لهم مثله : « ... وبالجملة ، فإن مجموع ما كان يملئه من الفنون لم يسمع عن أحد ممن تقدمه أنه قد جمعه » واعترف أيضاً معاصروه بتفوقه ، فقال أمير الدين المفضل الأبهري - وهو عالم كبير في الخلاف والأزياج بفضل كمال الدين وعبقريته - « ليس بين العلماء من يعاين كمال الدين » وقال موفق الدين عبد اللطيف البغدادي - وهو من كبار علماء القرن السادس للهجرة - إنه لما لم يجد في بغداد من يأخذ بقلبه ويأله عينه ويحل ما يشكك عليه سافر إلى الموصل سنة ٥٨٥ هـ ، فوجد فيها كمال الدين بن يونس متبحراً في الرياضيات والفقه عالماً بأجزاء الحكمة الأخرى ، قد استغرق حب الكيمياء عقله ووقته . وكان فقهاء زمانه يقولون : إنه يدرى أربعة وعشرين فناً دراية متقنة ، وكان جماعة من الحنفية يشتملون عليه بجهلهم ، « ... ويحل لهم مسائل الجامع الكبير أحسن حل مع ما هي عليه من الإشكال المشهور وكان يتقن فن الخلاف والعراقى والبخارى وأصول الفقه وأصول الدين ... » ، وعلى الرغم من ذلك ، فقد وجد في قومه من يتهمه في دينه ، وقد يكون هذا الاتهام آتياً من اهتمامه بالعلوم العقلية وتعمقه فيها . ونظم أحد الشعراء المعاصرين لكمال الدين اللبتيين الآتين اللذين تبين منهما للفكرة التي كانت سائدة عند الناس في دينه : أجذك إن قد جاد بمد التمسب غزال بوصول لي وأصبح مؤنسى وعاطيته صبياء من فيه مزجها

كرقة شمري أو كدين ابن يونس
ويقول ابن أبي أصيبعة : « ... كان كمال علامة زمانه وأوحد أوانه وقدوة العلماء وسيد الحكماء ، قد أتقن الحكمة وتميز في سائر العلوم ... » برع في الحساب ونظرية الأعداد وقطوع المخروط وكتب في المرجمات السحرية والجبر والسيمايا والكيمياء والأعداد الربمة والسمع المنتظم والصرف والمنطق ، وقد حل مسألة تتعلق بإنشاء مربع بكافي قطعة من دائرة . ويقال إن الأبهري الذي سبق ذكره قد برهن على صحة حل ابن يونس